التقدير الفني

بين النظريتين العلمية والفنية

لعلي أدهم

عندما نحاول أن نتعرّف مظاهر هذا الكون المفاض بالمجاهل والغوامض والحافل بالأسرار والاعاجيب لسلك طريقين : طريق الفن وطريق العلم ، فكل حقائق الحياة وما تحتويه من عواطف واهواء وخواطر وآراء وموجودات وكوائن مضطرب واسع يتسابق فيه العلم والفن ويتباريان في الوقوف على دقائقه والكشف عن أسراره . والنظرة العلمية للكون تتناول الاشياء من الناحية التحليلية فتحصي صفاتها وخواصها ، وتلحق النظير بنظيره ، وتنظم الأشياء في عقد واحد ، وترد مختلف الاشياء إلى طبقات وأنواع وطوائف وأجناس ، وينتهي بها فرط التحديد والتقسيم الى ربط الأشياء جميعها برباط واحد وهو علاقة السبب بالمسبب . أما النظرة الفنية فهي نقيض النظرة العلمية لانها تقبل على الاشياء في ذاتها وتلمح خصائصها الفذة ومزاياها الفريدة ، ولا تعبأ بالخارجيات والروابط والعلاقات ، وإنما تتأمل فيها ما يملأ الحواس ويهم الشعور ، فالكون في نظرها كلية تامة مكونة من كليات صغيرة كاملة في ذاتها قائمة بنفسها حرة في نظامها

والنظرة العلمية بتحليلها للمظاهر تنزع الجمال من الاشياء وتذهب بالروح والرونق وتشرف بك على الكون بحراً تتضارب فيه امواج التيارات والاحداث للتابعة وتتصارع فيه العناصر وتتعانق ، وتلتقي وتفترق ، وتتركب وتتحلل ، وتستمر هكذا على الدوام في فيض متتابع ، أما النظرة الفنية فتشرف بك على الكون كلياً بالبهاء رائع المظهر تسمع خلاله انغام الآباد وتلمح صور الخلود . والنظرة الفنية والنظرة الدينية منشقتان من نبع واحد ، وكما أن النظرة الدينية تستشف من وراء مظاهر الكون علة العلل وقدس الاقداس ، فكذلك النظرة الفنية ترى الكون قصيدة رائعة التناظها مظاهر الاشياء ومعناها الجليل مستتر خلال تلك المظاهر الخلابة ، ومن ثمّ امتزاج الاساطير الدينية بالقصص والاشعار في أديان الامم القديمة وآدابها ، والنظرة الفنية ترى في كل مظهر من المظاهر نفحة من معروضات الفن تثير الخيال وتهز النفس وتفتح اغلاق القلب ، وفي عصور القوة تغلب النظرة الفنية على النظرة العلمية ، اما في العصور التي تضمحل فيها القوى وتذوى الغرائز فتتصدر النظرة العلمية ، على أن النظرتين لازمتان وكل منهما مكملة للأخرى

والتقدير الفني الصادق لمنشآت الفن ونفائس الادب يقتضي وجود عاملين هامين وهما الاستقراء التاريخي ثم الخيال اليقظ المدرب والذوق السليم المهذب ، ولا بد من تآخي هذين العاملين ، فقد يقترن الاستقراء التاريخي الواسع بالخيال الكسيح الواني والقلب المغلق الفاتر والذوق الفاسد السقيم فيحول ذلك دون تذوق الفن وتقديره ، والمؤرخ الذي لم يرزق حظا وافراً من الذوق وقوة الخيال ليس في وسعه ان يرتفع الى سماء الفن وعالم التقدير الفني ولو وقف على تلال عالية من المعلومات والاسانيد والوثائق التاريخية ، ولا يمكن ان يتغلغل الى ارواح الفنانين ونفوس الرجال العملين او ان يسلك طريقه الى لباب الحوادث الكبيرة المعقدة لان استشفاف كنهها والخلوص الى سرها في حاجة الى الرؤية الموفقة والزكانة الملهمة ، فهو يظل خارج حجرات نفائس الفن ومقاصير الارواح وان كان عمله قد يفيد بعض الفائدة اذ يمهد الطريق ويرفع المنار لمن يجيء بعده من الموهوبين

وكذلك الناقد القوي الخيال السليم الذوق اذا اكتفى بالتعويل على ذوقه الخاص ولم يجل جولته في نواحي الماضي ولم يهبط الى اعماقه تعذر عليه أن يفهم الاشياء على حقيقتها ولم يغن عنه ذوقه ولا خياله ، وقصاراه ان يقدم لك افكاراً لامعة عن اشياء لفقها خياله المرح ووشاها الوهم والظن وعمله قليل الجداء وسعيه باطل عقيم فلا هو يعد من جامعي الآثار وممهدي الطريق ولا هو يحسب من رجال الأدب والفن

على ان اجتماع الاستقراء التاريخي والذوق الفني ليس كافياً لينشأ منهُ مؤرخ آداب وناقد فني من الطبقة الاولى ، اذ لا بد من توفر ميزة اخرى خطيرة الشأن وهي المقدرة على التعبير وقوة الوصف والتمثيل ، فاذا استكمل المؤرخ هذه الشرائط واستوفى ناقد الفن كل تلك الحدود فهنا تظهر المؤلفات الخالدة في الادب والنقد والتاريخ تلك المؤلفات التي تبدأ عصوراً فكرية وتزخر تيارات الافكار وتجلو العصور الغابرة أبهر جلوة وتعرضها أجمل عرض وأصدقه وتبعث الماضي الدفين من قبره حيًّا ملموساً وتشارف منها ارواح المؤلفين والفنانين ونفوس العظماء البارزين في جلالها وتألقها ، بل تكاد تدميها اذا طعنتها كما قال الناقد الاميركي لول عن صور كارلايل التاريخية

وأصدق الطرق لفهم عبقرية من طراز عبقرية شكسبير وتقديرها تقديراً فنيًّا هي ان تضع انفسنا مكانه وترتفع بخيالنا الى مستواه ، وفي حياتنا الدارجة الرخيصة تفصلنا عن شكسبير وامثاله مسافات شاسعة وابعاد لا تقاس بالامتار ، ولكن في اوقات التأمل الفني الخالص القائم على صحة الاستقراء التاريخي لحياة شكسبير وعصره وعلى سلامة الذوق وحيوية الخيال تتصل روحنا بروحه وتسري فينا مع نفسه ، وفي هذا الاتصال الفني بارواح العظماء تعظم الروح وتتسع آفاقها وتتراخى حدودها في عوالم الارواح وتحلق في سماوات الخلود ، ولا عبرة بتفاوت العبقرية بين شكسبير وناقده الفني وقارئه البصير فان الفرق بين العبقري الكبير وسائر الناس فرق نسبي وليس بالفرق

الجوهري ، وقد يكون شكسبير عبقرية كبيرة وناقده عبقرية صغيرة ولكنهما من معدن واحد ولو كان هناك فرق جوهري بين النابغة وسائر الناس لانقطعت العلاقة بينهم وبين الناس ولعاش كل عبقري ملفوفاً في دخان من الغموض فلا يدنو منه انسان ولا يدنو هو من انسان

والتقدير الفني الصادق لمسائل الاخلاق والتاريخ والاحوال الاقتصادية والسياسية يجري على هذه الطريقة ويقوم الى تلك السنة ، ففي التاريخ لا نستطيع أن نقدر حادثة من الحوادث دون أن نقف على فرص وتفاصيل كافية لتصورها على حقيقتها ، ولا يمكن الحكم على عمل من الاعمال الاخلاقية الا اذا وضعنا انفسنا مكان صانعه وأحطنا علماً بكل الظروف التي اكتنفته والمؤثرات التي أثرت فيه والا ظل الموقف غامضاً وكانت احكامنا مظنة الخطأ وسوء التقدير ، والتفسير التاريخي للاشياء يفتح الطريق للتقدير الفني وهذا هو سر السرور العظيم الذي يستخف جماعة المفكرين عند عثور علماء العاديات على أثر من آثار الماضي لانه يكمل النقص ويسد الفجوات في تصورنا للماضي ويدنينا من التقدير الفني الصحيح للحضارات الغابرة والامم السالفة

وللاستاذ وندلباند الفيلسوف الالماني رأي ساقه في عرض كلامه عن «المادة» في كتابه النفيس «مقدمة الفلسفة» يقارب ما اذهب اليه في تقريرما للتقدير الفني من شأن قال «الفردية لا توصف وانما يشعر بها ، وهذا يصدق عن الشخصيات الكبيرة مثل نابليون وشكسبير وجيتي وبسمرك وهو يصدق ايضاً على الشخصيات البارزة في الادب مثل هملت وفاوست ، وانما نستطيع ان نعبر باللفظ عن كل عمل من اعمال العظماء وان نفي كل صفة من صفاتهم حقها من الوصف ، ولكن العنصر السائد المسيطر على الاعمال والصفات يجب ان يحس به ويجرب ، ومن ثم لا يلمح هؤلاء الذين يعبرون بالمقارنات والمشابهات الطابع الخاصة لشخصية من الشخصيات والافراد وصفاتهم الفردية من الاشياء التي لا تدرك بالعقل . ومن اللازم أن يحس القارئ بظلال الفردية من ناحية الفن وتوصيف حياة الافراد في كل طور من اطوارها حتى تظهر صورهم لعين القارئ وحدة حية كما راعت في الحياة ، ويمكننا بالتحديد التاريخي ان نفهم ونفسر العناصر المختلفة في طبائع الافراد لان كل ما يتعلق بمظهرهم التاريخي خاضع للعقل ، ولكن في نهاية الامر نرى ان مادة فرديتهم متوقفة على تلك «الوحدة» التي لا يعبر عنها والتي لا يمكن ان تصير موضوعاً للفكر والبحث لانها شيء يلمح بالبداهة ويدرك بالبصيرة الواعية»

وكل شيء ازاء التقدير الفني يحمل مقياسه ومثله الأعلى في مطاويه ، فليس هناك مقياس عام توزن به الاشياء وانما لكل شيء مقياسه الخاص الذي لا يصلح لسواه ، فلكل حضارة من الحضارات وعصر من العصور وأثر من الآثار وعظيم من العظماء ميزان خاص متصل بأحواله ومستوى عصره ، وانما نتورط في الخطأ ونغمط الناس فضلهم اذا تمسكنا بمقياس واحد ونظرنا الى كل شيء من زاوية بذاتها ، فالحضارة اليونانية لا تقاس بمقياس الحضارة الرومانية

ولا توزن حضارة بابل وحضارة الصين بنفس الميزان ، ولقد وقع في هذا الخطإ المؤرخ الكبير بكل (Buckle) هو واضرابه ممن يرون ان تقدم الانسانية رهن بتقدم العقل وتغلب قوانين العقل على قوانين الطبيعة ، فكانوا يرون في العصور الوسطى عهد ظلمة وركود وجهل مطبق وسخافات ذائعة وخرافات شائعة ، والعصور الوسطى تبدو كذلك لمن حاول وزنها بميزان العقل المدرك والتقدم الفكري ، ولكن للعصور الوسطى مقياساً آخر لانها لم تكن عصر عقل واستنارة وانما كانت من تلك العصور التي يخمد فيها العقل لتثور العاطفة ، كانت عصور عواطف عميقة ومشاعر جميلة رقيقة تجلت فيها الروح الدينية وبسطت سلطانها على النفوس والهمت الفنانين القدرة على تشييد الكنائس البديعة وصنع التماثيل المتقنة والصور الخالدة ، وسادت فيه اقاصيص الفروسية واعمال القديسين الاطهار التي يتجلى خلالها صفاء الروح ويتنسم منها أريج التقوى ، ولقد اخذ العقل قسطه في الحضارات السالفة ، اما في العصور الوسطى فنال القلب نصيبه ، فهي اذا قيست بمقياسها الصادق مقياس العاطفة عصر زاهر مشرق ، وقد علل الفيلسوف الألماني هارتمان ازدهار الحركة الادبية الكبيرة في المانيا في اوائل القرن التاسع عشر بما عمقتهُ حياة العصور الوسطى من نفوس الالمان وما أفسحتهُ لهم من مجالات الخيال والتصور

ويصدق هذا كذلك عن العظماء ، فالعظيم في الحياة العملية مثل نابليون والاسكندر وهانيبال لا يقاس هو والقديسون ورجال الفكر والفن والانبياء بمقياس واحد فمن الخطإ ان نلتمس في حياة نابليون دلائل رقة العاطفة وعذوبة الروح ونضارة الفضيلة الى غير ذلك من شمائل الانبياء والفنانين لأن سر عظمته قائم على ضخامة الانانية وفرط الدنيوية ، وقد روى أحد المؤرخين عن القديس الشهير سنت فرانسيس انهُ أراد ان يثبت للناس حبه للفقر وإيثاره مظاهر العوز والحاجة فمشى في الطريق وسط جمع حافل من الناس مجرداً من ثيابه ليعطيها لأبيه. وظهر مرة على المنبر وقد تجرد نصفه من الثياب ومشى في الطريق والاطفال تعدو وراءه صائحة المجنون ! المجنون ! وهو من النبل وسمو الروح بحيث حاز اعجاب دانتي وأوحى الى الكثيرين من رجال الفنون — ولا يزال يوحي — طوائف من اسمى الافكار وأعلى المشاعر ، ولو انا قسناه بمقياس صغار الاطفال او بمقياس من المقاييس العلمية الجديدة لالحقناه بالمجانين وشواذ الخلق ، والحقيقة أن كل مظهر من المظاهر الفنية او الدينية أو العملية يجب أن يقاس بمقياسه الخاص والا كنا كالذي يحاول ان يميز الالوان بسمعه ويختبر الأنغام ببصره ويزن الدر والذهب بميزان الاحجار والصخور ، وليست هناك مقاييس مطلقة ولا موازين عامة ، وليست الحياة توالي متشابهة ولا نسخاً متكررة ، والعالم بما فيه من خير وشر وفوضى ونظام وحدة كلية لكل شيء فيها مكانه المناسب وأقرب طريق لادراك ذلك ان ترى الحياة في ضوء الشعور والوجدان وتلمح الوجود بخواطر الشاعر والفنان